

المحاضرة الأولى: الأدب الشعبي العام المفهوم والاصطلاح 1

● تمهيد:

لقد فصل الدارسون والنقاد بين الأدبين الرسمي والشعبي، وميزوا الأول فخصوه بعنايتهم واهتمامهم، بينما همّشوا الثاني بصورة لا تخلوا من ازدراء، على أساس أنه أبعد ما يكون عن الرفعة والرصانة، وأليق بالفئات الاجتماعية الجاهلة والأمية، وألحق بالفولكلور بمفهومه السياحي. والحقيقة أن الأدب الشعبي لا يقل أهمية وفنّية عن الأدب الرسمي، وأنّ المفاضلة المتحيزة بينهما لصالح الأدب الرسمي هي عملية مفتعلة، ولا تقوم على أيّ أساس علمي أو فني مقنع. وإنما تعود العلة في هذا النوع من المفاضلة إلى الرواسب الطبقيّة التي فصلت بين النخبة والرعاع، وإلى الارتباك الذي حصل في فترات عديدة حول مفهوم الشعب، فقد قصر بعضهم هذا المفهوم على الفلاحين وأهل الريف الذين احتفظوا بالعادات والتقاليد القديمة، والذين تسيطر عليهم العاطفة فكراً وسلوكاً.

إنّ الأمر الملحوظ فيما يتعلق بالمصطلح المعتمد عادة لتمييز هذا الأدب عن غيره، هو تعدد المصطلحات الدالة عليه، فقد استعمل الباحثون والنقاد مصطلحات (الفن القولي، الأدب الشفاهي، الأدب غير المدون، الأدب البدائي، الأدب الشعبي...) وما شابهها من التنويعات الوصفية التي تشترك جميعاً في الدلالة على انحطاطه وانحطاط منتجه ومستهلكيه؛ فهو شفاهي، غير مدون، بدائي، شعبي بالمفهوم الطبقي؛ مقابل ما للأدب الرسمي من نعوت رفيعة، جلّها يكرّس نخبوية الأدب الرسمي ومبدعيه وقرائه على السواء: فهو (الأدب الفردي، الأدب الذاتي، الأدب الخاص، الأدب المدون، الأدب الرفيع، والأدب الرسمي...) لكن يبدو أن الباحثين قد فعلوا خيراً عندما تخلصوا من هذا

الاضطراب الاصطلاحي، فاستقروا في العقود الأخيرة على استعمال مصطلح (الأدب الشعبي) **Littérature populaire** الدال على نوع أدبي بعينه ذي مواصفات معينة. الأمر الذي جعل هذا الأدب يفرض نفسه نداءً للأدب الرسمي على المستوى الاصطلاحي على الأقل.

• رواة الأدب الشعبي:

يقسم الدارسون رواة الأدب الشعبي إلى ثلاثة أنواع:

1- **الرواي الموهوب (المبدع):** له مقدرة وكفاءة خاصة في حفظ المادة الحكائية، وتلوينها، والجمع بين عناصر ثقافية متشابهة، وتنويع الرواية وفق رغبات الحضور. أما مصادره فهي متنوعة ومتباينة؛ شفوية ومدونة، محلية وأجنبية... وهذا النوع من الرواة بإمكانه انتقاء الأعمال والمنجزات الناجحة فيعيد صياغتها وتكييفها، ليلبي رغبة جامحة في مواجهة القضايا الفردية أو الجماعية التي توترق أصحابها بحثاً عن بارقة أمل للتخلص من تأثيرها. وبحكم احترافيته وذكائه وتجاربه ودقة ملاحظاته يلتقط الروايات التي يسمعها والأحداث التي عرضت للناس وللشعوب في حياتها، ويسجلها في ذاكرته ويعيد صياغتها وفق منطق الرغبة الملحة للمجتمع.

2- **الرواي المحترف (الجوال):** هذا الصنف ليس له من نشاط غير الرواية، ومصادره القصص والأخبار المدونة، وهي كتب التاريخ والمغازي والتفاسير وغيرها مما تزخر به كتب التراث الإسلامي، سواء أكانت من صميم التراث العربي الإسلامي، أم من تراث شعوب أخرى عدل فيها وأخذت لها طابع التراث العربي الإسلامي. وقد يروي الرواي التراث الشفوي غير المدون. ويطلق على هؤلاء الرواة في المجتمع اسم: المداحون أو الرواة المتجولون، فهم يقصدون التجمعات كالأسواق والمناسبات الجماهيرية، من مثل الاحتفال

بالمولد النبوي أو الوعدات فيروون الحكايات والقصائد المتضمنة ملاحم الأبطال الذين يتطلع المجتمع إلى التحلي بأخلاقهم وشجاعتهم وسلوكهم. ومن ثم يؤدي الراوي دورا مهما في تغذية مشاعر البطولة والحماسة، والاندفاع في مواجهة تطورات الواقع، فضلا عن نشر القيم والأخلاق الفاضلة بين الجمهور المستمع.

3- **الراوي الهاوي:** هذا النوع من الرواة ليست الرواية توجّهها لديه، أو مصدرا بكسب رزقه، وإنما هي رغبة وإعجاب بالمادة التراثية، وهو ما يحمله على ترديدها وإعادة صياغتها وراويتها في مناسبات خاصة. وقد يكون هؤلاء الرواة من النساء اللاتي يستهدفن تربية الأطفال عن طريق رواية قصص خيالي ينمي خيالهم ويدربهم على مواجهة الحياة ومشاكلها.

• الأدب الشعبي (المفهوم والاصطلاح):

ربما كان لتأثير الغرب أثره في كثير من مناحي الحياة الثقافية العربية. فبدأت ملامح التقليد ظاهرة العيان في البدايات الأولى للتأثير، ثم تحول هذا التأثير إلى موضوع قائم بذاته و ظهر أعلام لهم مكانتهم في هذا المجال.

والمقصود هنا هي الدراسات الشعبية، مواضيعها ومجالاتها، فنرى كل واحد يعرف لنا مكونات هذا الذي استطاع ان يجد له مكانا بين بقية العلوم ألا وهو الأدب الشعبي . لقد دأب أغلب دارسي الأدب الشعبي على أن يقدموه لنا في صورة غير واضحة وغير دقيقة، وحتى في صورة أقل ما يقال عنها إنها لا تمت بصلة إلى ثقافة المجتمع، صورته تأكلت جوانبها وامحت معالمها ،و يمكن أن تقدم لهم الأعدار في وقت تجاوزه الزمن الآن.

غير أن تلك الصورة ما زالت سارية المفعول إلى الآن ، إلا القليل منهم ممن تجرأ وخرج على بعضهم ليس تمردا وانما هو فهم جديد لمصطلح الادب الشعبي. غير أن هؤلاء لم يصلوا بهذا المفهوم الجديد إلى الخروج بالأدب من وضعه الراهن إلى أفق جديد يسير جنبا الى جنب مع الادب الرسمي. وأبقوا عليه في قوالب جامدة تقدم هكذا كمسلمات وهنا يمكن استعراض بعضها.

ولنعد إلى التعريف الجامع الشامل للأدب الشعبي في نظر الكثير من الدارسين السابقين وبعض اللاحقين؛ فهو أدب مجهول المؤلف ينتقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية، و الملاحظ أن هذا المفهوم هو الموجود في كل المراجع القديمة وحتى بعض الحديثة منها. وأصحاب هذه المراجع، لم يألوا جهدا في النظر إلى هذا التعريف و مكوناته، المهم لديهم أنه يؤدي غرضه ولم يحتج عليه أحد. وسبقى هذا سائر المفعول، ما لم يعد النظر فيه وفي قضاياها حسب مقتضيات ومتطلبات الوقت.

وسنقدم هنا رؤية نقدية نخالها جديدة أو نشارك فيها بعض المنورين الذين تفتنوا لوضع الدراسات الشعبية السابقة. وذلك عن طريقة تفكيك جمل التعريفات التي انبنى عليها مفهوم الأدب الشعبي وهي "مجهولية المؤلف". نحن نعرف أن الأدب الشعبي يتكون من شقين اثنين؛ الشق الأول هو الشعر، والشق الثاني هو النثر بمكوناته المختلفة والمتنوعة .

فالشعر، كغيره من الشعر في الثقافات الأخرى هو فن والفن إبداع والابداع موهبة قد تكون لأحد ولا تكون لغيره ولا يمكن دونها أن يكون شعراء وهذا ينطبق على كل الشعراء في أي لغة وفي أي ثقافة كانت. وهنا وجب طرح قضية المصطلح في حد ذاته، إذ تعددت المسميات لهذا الشعر ولم يتفق الدارسون على

مصطلح واحد قد يطمئن له القارئ العادي و القارئ العليم ((و حسبنا ان تعريفا للشعر الشعبي لم تسع إلى تقديمه أي من الدراسات و نعلم يقينا أن التعريف لا يمكن أن يجئ إلا من خلال الاستقراء الدقيق لنصوص الأنواع وصولا إلى الخصائص النوعية المميزة و التي يمثل كل منها حدا من حدود التعريف)) ونرى أن التسمية تنبثق من المفهوم صحيحا كان أو خاطئا لاعتبارات معينة. فمثلا نجد الدكتور عبد الله ركيبي يستعمل مصطلح الملحون لاعتبارين، كل واحد لا علاقة له بالآخر. فيرى تسميته بالملحون، أنه تخلى عن القواعد النحوية والصرفية أي فيه لحن أو خطأ لغوي، وهنا نجر الى الحديث عن اللغة المستعملة في الادب الشعبي وهي اللغة غير الفصيحة معياريا.

و نسأل هؤلاء عن ماهية اللغة التي يجب استعمالها ، ماذا ينتظرون من راو في الأسواق أو عجوز في الأدغال أن يستعملوا لغة عنتره و زهير و الصعاليك في مخابئهم . رغم أن هؤلاء مثلهم في الجانب الثقافي و التحضر الاجتماعي ، فهم لا يعرفون الا الدارجة. أي إن لغتهم كانت هي اللغة اليومية المستخدمة اجتماعيا.

الكثير من الدارسين يتكلمون عن العربية الرسمية (الفصحى) و يتخذونها مرجعا لكل توضيح و فهم و دلالة و تعريف للغة الادب الشعبي . و هذا من أكبر الأخطاء الممارسة في موضوع هذا الأدب , فيتخذون من العربية الرسمية مرجعا معياريا للغة الأدب الشعبي، فيعييون على الشاعر الرفع و الكسر... فهذا يدعى انها تخلت عن القواعد ، و ذلك يرى فيها أخطاء لغوية و آخر... و الحقيقة التي يجب أن نقتنع بها أن اللغة الدارجة هي لغة الشعب هي لغة الاستعمال اليومي . وهذه اللغة قائمة بنفسها و لا يمكن أن نقول إنها خاطئة أو فيها أخطاء و لا نربطها بلغة أخرى ، و يمكن أن نقول إنها قريبة من لغة أخرى أو ما شابه ذلك

هي لغة لها قواعدها النحوية والصرفية ولها بلاغتها وفصاحتها ولا نشترط أن تكون مثل العربية الرسمية وهذا لا يمكن لأي كان أن ينكر ذلك.

ثم الاعتبار الثاني لعبد الله ركيبي لاستعماله صفة الملحون هو أن الشعر موجه للتلحين والغناء ومن ثم يصبح اللحن أو الملحون (الغناء) هو أقرب لتسمية الشعر. وتتاسي الدكتور أن الكثير من القصائد العربية القديمة و الحديثة لحنوها وغنوها مطربون و لم يطلق عليها تسمية الملحون ، كذلك نجد محمد المرزوقي قد استعمل الملحون اذ يقول : ((اما الشعر الملحون الذي نريد ان نتحدث عنه اليوم فهو أعم من الشعر الشعبي))

كما نجد محمود ذهني يتكلم عن لغة الأدب الشعبي، ويرى أن لغته تضم الفصحى والعامية...ولا أدري كيف تكون هذه اللغة الممزوجة.

ونحن نعرف ان اللغة العربية الفصحى محدودة الاستعمال وهذا أمر لا جدال فيه، حتى في مدارسنا وفي جامعاتنا. الدارجة هي أكثر استعمالا من الفصحى وهذا في ميدان العلوم الانسانية. أما الجوانب المعرفية الاخرى فلا مجال لها فيها.

غير أن أغلب الباحثين العرب يستعملون مصطلح الشعر الشعبي منهم : نبيلة إبراهيم ،عبد الحميد يونس، عبد الحكيم شوقي، علي بولنوار... إذ لا يمكن أن يسمى هذا النوع من المعرفة الانسانية (الأدب الشعبي) ونأتي الى جزء منه ونخرجه من هذه التسمية . والمعروف عن الشعر الشعبي ان أغلبه معروف القائل إذ نعرف جميع الشعراء إلا ما ندر منهم.

فالشاعر عندما ينتهي من القصيدة وفي آخرها يذكر اسمه واسم قبيلته،
المكان الذي عاش فيه، والتي قال فيها هذه القصيدة. وبالتالي مجهولية المؤلف لا
تصح منطقيا كشرط في التعريف.

ثم إن أغلب الأشعار مدونة في دواوين مخطوطة أو مطبوعة وفي الوقت
الحاضر جل الشعراء يطبعون أشعارهم ويوزعونها ورقيا أو إلكترونيا بأصواتهم.